الباب الرابع

الاختلافات المذهبية

إني أرى أن الاختلافات المذهبية، أو على الأقل الخصومات العنيفة الناجمة عنها، قد تولدت من عدم تقدير العظمة والقدرة الإلهية حق قدرها.

كانت هذه المناقشات في الأصل مما لا ينبغي أن يتجاوز حدود المناظرات المنطقية والعلمية والفنية، ولكنا أقحمنا اسم الله عز وجل في مناقشاتنا التي لا معنى لها، فحاول كل فريق منا إسناد الكفر والإلحاد إلى الفريق الآخر، فقلبنا الاختلاف البدائي خصومة دينية لا تهدأ.

فاختلافات الجهمية والمعتزلة، نشأت في أصلها عن التعبير بأن «العبد خالق لفعله» بدل التعبير بأنه «فاعل لفعله»، وتصور الاستقلال التام في الإرادة البشرية. وهذه العقيدة خطأً كانت أو صواباً، صالحة لتكون موضوع مناقشة علمية، يستطيع فيها الطرفان مناقضة بعضهما بعضاً ونقده، بل واستجهاله واستحماقه، ولكن لم تقف المسألة مع الأسف عند هذا الحد، فقالت القدرية: «إن عدم القول بعقيدتنا يكون إسناد الظلم إلى الله من عذاب الآخرة». وقال معارضوهم: «إنكم تنكرون ما علينا من قدرة التصرف والإرادة الإلهية الكلية، وهذا كفر». فنشأ أولاً هذا الخلاف، ثم توسع مع مرور الزمن واشتد، حتى تولدت منه مبادئ غريبة غير معقولة. وسالكو مذهب الجبرية يقولون بعكس ذلك، فهم يبالغون في سلب

القدرة والإرادة عن الإنسان. وليس هذا حسب، بل تورط غُلاة الجبرية في بعض عقائد سخيفة، ككون الله مجبراً البشر على ارتكاب أعمال قبيحة، وهم فوق ذلك يكفرون المذاهب الأخرى، زاعمين الشرك بالله في إسناد القدرة والإرادة للإنسان، ويتهمهم المعارضون بأنهم يسندون الظلم إلى الله.

ولما كان أصل الاختلاف ومنشؤه من إفراطهم في محبة علي بن أبي طالب، ومن مسألة الخلافة؛ أي أنه مرتبط بالأمور الدنيوية والسياسية، فكان من الممكن المناقشة في كيفية صواب تفويض الخلافة إلى على كرم الله وجهه أو خطئه، وإيراد الأدلة المتقابلة لكلا الطرفين ونقدُها- في حدود الأدب بالطبع. ولكن فريقاً من العلماء السنيين ينسون أن مناظريهم ذوي الرأي في هذه المسألة كانوا أيضاً من الناس، فلا يكتفون بالدفاع عنهم في حدود العقل والمنطق، بأنهم كانوا مصيبين في اجتهادهم، بل لا يجيزون بأدنى ملاحظة في هذا الباب، ويعدون أدنى الاعتراض عداوة غليظة. ثم إن الشيعة الذين زادوا شدة وعنفاً بتحريض بعض المنافقين، وحث بعض الرؤساء الطالبين أغراضاً ومطامع دنيوية- ظهرت فيهم ضروب من الغُلاة، فكفر بعضهم الصحابة الكرام، لإبداء آرائهم خلاف رغبة الرسول، ثم تقدموا درجة درجة فخطئوا الرسول لعدم توصيته صراحة، وخطئوا الله سبحانه وتعالى لعونه على ارتكاب مثل هذا الظلم! وذهب بعضهم إلى تأليه على، وءاخذه بعض منهم على تنازله بسهولة عن حقه في الخلافة، بعد وفاة الرسول، وبيعته لأسلافه العظام. وءاخذه

الخوارج على رضاه بالتحكيم بعد معركة صفين. وأعقب هذه المنازعات والمناقشات تكفير من الجهتين، تولدت منه عدواةٌ لا تهدأ ولا تسكن.

وغرق بعض الفرق في بحر من المناقشات، حول كون الله متكلماً أو غير متكلم، وكون كلامه قديماً أو حادثاً، وقد حاول بعضهم تشبيهه بالبشر- حاشا لله- ودقق بعضهم في صفات الله الثبوتية، فأقر مثلاً بكونه خالقاً وقادراً، وأنكر كونه حياً وعالماً!

فلنفكر منصفين؛ إذا برهنّا على عظمة الله وقدرته بما نشاهد من آثار الخلقة وحصل الاطمئنان، أفلا يكون من العبث محاولة الكشف عن كنهه وذاته ومراده بمباحثات وأقيسة منطقيةً؟ وكيف ترد إلى الأذهان ألفاظ وآراء متضمنة شوائب العجز والظلم والذهول في حق الله؟!

إن الذين وقعوا في تلك الأوهام هم أناس ناقصو العلم، ضيقو القريحة، يتحدثون عن عظمة الله وقدرته وأزليته تقليداً كالببغاء، دون أن يحصلوا على فكرة صحيحة، بل على فكرة بسيطة عن تلك العظمة والقدرة، فيقيسون الله بأنفسهم كفرد منهم يجول في أطراف الأرض، مشغولاً دائماً بأفعال العباد وحركاتهم.

لقد التزمت في أوائل هذا الكتاب التزويد بمعلومات، وقدمت أعداداً وأرقاماً حوت الأصغر والأكبر غير المتناهيين. وإذا فكر فيها الإنسان وتذكر قليلاً، فلا يمكن تأويل الإصرار عن علم ودراية، على مثل هذه المبادئ الواهية- بغير الكفر.

إن رجلاً موحداً بالله بإخلاص تام، وحامداً له، إذا زار قبر رجل قد اشتهر في حياته بالصلاح والتقوى والخدمات الإنسانية، فليس في هذه الزيارة شيء من إشراك العظماء بالله، ولن يكون أبداً. بل بعكس ذلك، إن تصور مثل هذه الحال في حق الغير وإسنادها إليه، فيه ما ينم عن أن الله تعالى سهلُ الإشراك به- فهو إثم عظيم.

يخيل إليّ أن بعض علماء السلف، بدل أن يأخذوا الأدلة والبراهين في هذه المباحث عن آثار الخلقة وطبيعة الكائنات، حاولوا استخراج معان مختلفة من العبث بالأقيسة المنطقية، والتدقيقات النحوية واللغوية من بعض عبارات، فارتكبوا الخطأ والضلال.

إن علم المنطق يرشد إلى طريق سليم مستحسن، وأصول للمناظرة. لقد اخترعه الفكر البشري لهذه الغاية، وأفاد واضعوه قدماء حكماء اليونان منه بحسب حكم زمانهم. ولكن وجد من بينهم من استخدم هذا العلم وهذه الأصول أداة للسفسطة كذلك، وأما مقلدوهم المتأخرون فبالرغم من أنهم حبسوا أذهانهم مدة مديدة في حدود صغرى هذا العلم وكبراه، أرادوا العوم في أسرار مجر الخلقة، فضلوا ضلالاً مبيناً، وافترقت الفرق الضالة عن السواد الأعظم.

بعد نحو قرنين من تاريخ حدوث هذه المناقشات والمجادلات في المراكز العلمية الإسلامية كبغداد وغيرها، كانت الحالة الفكرية نفسها تسود عالم النصرانية في أوربا. فقد أورد المؤرخ الشهير سنيوبوس المثالين الآتيين عن موضوع المناقشات المنطقية في ذلك العهد؛ هما:

«هل يقدر الله على علم بشيء أكثر مما يعلم؟» أو«هل كانت جروح عيسى لا تزال باقية بعد الإحياء؟» قال واصفاً مناطقة ذلك الزمان بأنهم «كانوا يتجادلون، ولكنهم لم يكونوا يشاهدون ولا يتأملون».

"Ils raisonnaient; mais ils n'observaient pas"

فالمنطق الذي دفع الناس إلى ما نشاهد اليوم من أسلوب التفكر والبحث والتقدم العظيم- كان فيما مضى سبباً لاختلافات غريبة- كالتي أوردناها- في كل أرجاء العالم [٩٥]. ولكن ما الحيلة؟! فهذا هو القانون الطبيعي. فتطور البشر يتحقق دائماً بالتموجات، وبالانحطاط والاعتلاء.

كل فرقة من الفرق الإسلامية تجعل نفسها في مقام الوكيلة عن الله سبحانه وتعالى في تلك المجادلات التي تقوم حول ذات الله وكلامه القديم ورسوله الكريم؛ فتتهم مخالفيها بالكفر والإلحاد، بل تحاول التنكيل بها مادياً، فتصاب الجامعة الإسلامية بالتفرق والنفاق، ويضعف المسلمون جميعاً.

إني لا أكتفي بجعل علماء الفرق المخالفة وأركانها وحدهم مسئولين عن هذه الحالة، بل أتجرأ فأجعل بعض علماء أهل السنة أيضاً مسئولين عنها. لأنهم هم أيضاً قاموا بحركات عنيفة ضد مخالفيهم، فأغلقوا أبواب الائتلاف، دون أن يتوسلوا بوسائل رفع النفاق، وأكنوا في أنفسهم حتى اليوم ما أيقظته المجادلات اللسانية والفعلية من سوء الظن والحنق في أثناء ظهور الفرق المخالفة، على حين أن الغليان الحادث في أثناء

الجدال- بطبيعة الحال- يهدأ قليلاً قليلاً، فيقل الغُلاة مع الزمن ويزيد عدد المعتدلين والمنصفين. فلهذا أظن أن البحث في سير وآراء من يقال عنهم رجال الفرق الضالة، والسعي لتأليف البين كلما سنحت الفرصة بذلك، ألزم عقلاً وسياسة، وأوفق للأحكام الشرعية [٩٦]. ما دمنا نؤمن بأن رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، وأنه لا دين بعد دينه، فليس لأهل القِبلة المصدقين بالله قلباً وروحاً حق تكفير بعضهم بعضاً من أجل الاجتهاد والمذهب. «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداوة والعَشى يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شيء» - سورة الأنعام، الآية ٥٠.

العناد والتمادي في التكفير غير جائز، وإذا اقترن العناد بالتعمد فهو كفر محض. فيجب على كل فرد مسلم، ولاسيما العلماء، إقناع المعارضين بالأقوال اللينة، والأدلة العقلية والنقلية، وإرشادهم حتى يدخلوا دائرة الوفاق والحدة: «وجادلهم بالتي هي أحسن».

إن الله سبحانه وتعالى لن يضن على عبد ساهٍ مخطئ بعفوه ورحمته، وشفقة الرسول ومحبته- من أجل عقيدة فرعية ولو كانت خاطئة اعتقدها بنية خالصة، دون غرض مادي.

لأن الله ناظر إلى قلوب عباده، وعالم بخفايا صدورهم. ودوام هذه الاختلافات بشدتها وعنفها، يعرض ديننا وجامعتنا للضعف مادة ومعنى. فلذا يجب على أبرار الأمة البحث عن وسيلة لإزالة هذه الاختلافات، مذللين كل صعوبة في هذا الباب.